١ ـ الأدب الاغريقى
فى عصر الاسكندرية
للدكتور محمد مندور

يذكر القراء أن الإسكندرية كانت فى زمن ما عاصمة عقلية للعالم أجمع ، حتى ليصطلح علماء التاريخ على تسمية القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح بعصر الإسكندرية . وهو عصر إغريقى بلغته وثقافته . ومع ذلك فمن واجبنا نحن المصريين أن نعنى بدراسته لا تصاله الوثيق بتاريخ بلادنا . وما نظن فهمه يستقيم ما لم نلم بملابساته التاريخية لنرى كيف احتلت الإسكندرية هذه المكانة ، ونحدد أهميتها بالنسبة للعواصم الأخرى التى عاصرتها ، وبخاصة آثينا . وعندئذ سوف نرى خصائص الأدب الإغريقى فى ذلك العصر تتحدد بذاتها متميزة عما عداها

ونقطة التحول كانت بلا ريب ظهور ملوك مقدونيا ، وبخاصة فيليب وابنه الإسكندر الأكبر فى القرن الرابع ق . م . فالى ذلك الحين كانت بلاد الإغريق عبارة عن مدن مستقلة ، تكون كل مدينة وضواحيها دولة قائمة بذاتها . ومع ذلك فقد استطاعت تلك المدن أن تأتى بالمعجزات فى المجال الثقافى والمجال العملى على السواء . ونخص بالذكر آثينا التى وإن لم يبلغ قط سكانها هى وضواحيها نصف المليون ؛ فقد خلفت من التراث العقلى ما لا يزال يبهرنا حتى اليوم ، كما استطاعت أن تتزعم المدن الإغريقية الأخرى لترد جحافل الفرس وتحمى الحرية فى بلاد اليونان كافة ، ولكنها لم تكد تستوى فى الزعامة بفضل انتصاراتها الباهرة حتى أخذها الصلف فنفرت إسبرطة الأبية ، وكانت بين المدينتين حروب طاحنة دامت ما ينيف على ربع القرن ، وقد اشتركت فيها جميع المدن ، وخرجت منها ضعيفة متهافتة . وعندئذ ظهر المقدونيون الذين امتد طموحهم إلى السيطرة على بلاد اليونان ، بل على العالم أجمع فى وحدة شاملة

ولكن العرين كان لا يزال به أسود وبخاصة آثينا ، حيث صمد الزعيم الوطنى الشهير « ديموستين » لفيليب وابنه ، وقد رفض أن يستسلم على الرغم من ضعف مدينته ، وذلك لأنه لم يكن يعرف غير الجهاد مهما تكن احتمالات الفوز أو الهزيمة ، وعنده أنه ليس أشرف للرجل من أن يموت وسلاحه بيده

ولا شك أن موقعة كيرونيد التى حدثت سنة ٣٣٨ ق . م . بين فيليب المقدونى وجنده من جهة ، وجيوش آثينا وطيبة من جهة أخرى ، قد كانت من المواقع الفاصلة فى تاريخ الإنسانية ؛ فانتصار فيليب على ديموستين هو انتصار عالم على عالم آخر . مضى عالم المدن . . . عالم الحرية ، وحل محله عالم الحكم المطلق والروح العالمية . وقتل فيليب سنة ٣٣٦ ق . م . وخلفه الإسكندر ، وكان ما نعرفه من سيطرة هذا القائد العظيم على الشرق والغرب . ومات الإسكندر سنة ٣٢٤ ق . م . وهو يعد العدة لغزو شمال إفريقية وإسبانيا وبلاد الغال ، ليعود إلى وطنه من الغرب بعد أن تركه من الشرق . وكان فى اتخاذه من بابل عاصمة لملكه ما يرمز لفكرته فى توحيد العالم والجمع بين الشرق والغرب

بعد موت الإسكندر تطاحن قواده على اقتسام أمبراطوريته العظيمة ، وكانت عدة معارك وعدة تقسيمات إلى أن حدثت معركة إيسوس سنة ٣٠١ ق . م . فكان التقسيم النهائى . وليس يعنينا من تلك المدة المضطربة غير نتائجها النهائية ، وقد تمخضت عن ثلاث ممالك كبيرة : مملكة أنتيجونوس بمقدونيا وبلاد اليونان ، ومملكة سليكوس بسوريا ، ومملكة بطليموس بمصر

أما مملكة أنتيجونس فما زال اليونان يناهضونها العداء وتناهضهم ، حتى انتهى الأمر بوقوع بلاد اليونان بيد روما الناشئة ؛ فأصبحت مقاطعة رومانية منذ سنة ١٤٦ ق . م . وإنه وإن تكن الثقافة الآثينية لم تخب دفعة واحدة ، إلا أن مراكز الثقافة الأخرى أخذت تحتل مكانها ، ونحن لا نجد بآثينا خلال القرن الرابع غير الفلسفة والكوميديا ، وأما ما دون ذلك من مظاهر النشاط الروحى فقد ذوى . فالشعر الغنائى قد جفت ينابيعه حتى لم يعد يقصد لذاته ، بل لمصاحبة الموسيقى على نحو ما نرى فى الأوبراكوميك الحديثة . والشعر الهجائى وشعر الوجدان «elegie» لم يعودا غير عبث باطل أو سخرية مصطنعة « Parodie » . وأما الملاحم فكان عهدها قد انقضى بحيث أنه عندما كتب أنتيماخوس ملحمته عن أساطير طيبة ومغامرات هرقل لم يهز شعره نفساً ، لأنه شعر مصنوع علم الشاعر فيه أوضح من روحه ، وكذلك الأمر فى التراچيديا التى لم يعد لها وجود يذكر

لم يبق إذن بآثينا من فنون الأدب غير الكوميديا ؛ فهى التى ترعرعت فى ذلك الزمن ، وقد انتهى بها الأمر إلى ما يسمى بالكوميديا الجديدة على يد فيليمون وميناندروس ، وهى

الكوميديا الأخلاقية : شيء مغاير للكوميديا القديمة ، كوميديا أرستوفانس . فهى لم تعد نقداً لنظم الحكم وتيارات التفكير ، بل تصويراً لشخصيات عادية يأخذها الشاعر من الحياة اليومية ، ولكنها لا تصل إلى كوميديا النماذج البشرية أمثال : ألسست وهرباجون وترتيف لموليير ، تلك التى يخلقها كبار المفكرين ؛ فيهتدى بها الناس إلى أنفسهم

ومع الكوميديا نجد كما قلنا الفلسفة ، فقد نهضت إلى جوار الأكاديميا واللیسيه مدارس أخرى : مدرسة الرواق ، وحديقة أبيقور ، ثم مذهب پيرون والمذهب الكلبى ، ونحن وإن كنا ننظر عندئذ ، فلا نجد مقراً للفلسفة غير آثينا إلا فى القليل من نحو ميجارا وبرقة ، إلا أننا نلاحظ أن الكثيرين من فلاسفة ذلك العهد قد كانوا غرباء عن آثينا ، فزينون من مستعمرة فينيقية بجزيرة قبرص وكليانتوس من مدينة أسوس بآسيا الصغرى ، وكريزيبوس ولد بمدينة سوليس بآسيا الصغرى أيضاً . وفلسفتهم وإن تكن إغريقية بما فيها من تحكيم العقل والربط بينه وبين نظام العالم إلا أنها شرقية بروحها الذى يكاد يكون دينياً . ولقد نادت الرواقية بالجبر وقال الإبيقوريون بالمصادفة ، وأنكر هؤلاء وجود الروح وأثبتها أولئك وتبلبلت الأفكار ، فانتهى الأمر بالشك البيرونى وامتدت كل تلك الآراء إلى تعاليم أفلاطون نفسه ، فإذا بالأكاديمية تقول بالاحتمالية ، وقد انهارت المثل فانهار بانهيارها عنصر الثبات فى المذهب . ومن هنا يتضح كيف أن كل هذه الفلسفات برغم ما فى بعضها من نبل كالرواقية لم تكن بلا ريب إلا السبيل الذى قاد إلى الانحلال ، وفيها إنكار للإرادة البشرية أو استسلام لأحداث الحياة أو توقف فى الحكم ، فيها عنصر سلبى خليق بأن يقوض حياة الشعب

ذلك ما كان من أمر آثينا التى لم يعد بها كما رأينا غير الكوميديا والفلسفة ، ولكن المملكتين الأخريين قد نشأت بهما مراكز فتية للثقافة ، ففى آسيا الصغرى وسوريا نشأت بمملكة السيليكيين مدن كبيرة كبرجاما وأنطاكية ، وفى مصر نشأت بمملكة البطالسة الإسكندرية ونيوقراطيس وبتوليماييس

وإنه وإن تكن كل تلك المدن قد ازدهرت فيها الحياة المادية والروحية إلا أن واحدة منها لم تبلغ ما بلغته الإسكندرية ، ومن هنا يصطلح علماء التاريخ ، كما قلنا ، على تسمية العصر الذى يقع بين الإسكندر الأكبر ولأوغسطس أمبراطور روما باسمها .

وهو عصر لم يكد يتأثر بالثقافات الشرقية التى عاش بينها بحيث يخيل إلينا أن تيتيوس ليفيوس المؤرخ الرومانى الشهير قد أصاب الحقيقة عند ما قرر أن المدن اليونانية التى نشأت بالشرق إذ ذاك كانت « كجزر يونانية تضربها من جميع النواحى أمواج بحر من البرابرة » ، ولقد كان الإغريق ينظرون إلى شعوب الشرق نظرة الغالب للمغلوب ، نظرة السيد للمسود ، وكانت شعوب الشرق بدورها تمقت أولئك الغزاة وتصدف عنهم ، ولقد وجدنا فى دستور نيوقراطيس ما يحرم على الإغريق الزواج من المصريات ، وكانت مدن الإغريق فى الشرق تعيش على النظام اليونانى ، فللكثير منها مجالس تشريعية (إكليزيه وبوليه) ، وحكام كحكام المدن الإغريقية الأوربية وإن تكن اختصاصات تلك المجالس وهؤلاء الحكام قد كانت شكلية استشارية أكثر منها فعلية نافذة ، وكانت السلطة الحقيقية بيد الملك

لم يصبغ الإغريق إذن بلاد الشرق بصبغتهم ولا لقنوه ثقافتهم فى ذلك العصر ، بل ظلوا غرباء عنه لا يكادون يؤثرون فيه أو يتأثرون به ، وإنما تداخلت الثقافات فى العصر الرومانى وبعد ظهور المسيحية حيث امتزج التفكير اليونانى بالإيمان الشرقى فى الإفلاطونية الحديثة التى هزت الروح الإنسانية كلها فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد

عصر الإسكندرية إذن عصر إغريقى بحت ، وهو مجرد اصطلاح تاريخى . فالحديث عن أدب الإسكندرية يتناول كل ما قيل من شعر ونثر فى البلاد اليونانية كلها خلال ثلاثة قرون . والملاحظ على ثقافة ذلك العهد أنها أصبحت ثقافة علمية محصلة أكثر منها أدبية خالقة ، كما أصبحت عالمية لا قومية وصناعة لا حياة . ولا غرابة فى ذلك ، فقد انتقلت الحياة الفكرية من الساحات العمومية (الأجوار ا) إلى المكاتب والصالونات ، انتقلت من حرارة الحياة إلى برودة الكتب ، انتقلت من الحاضر إلى الماضى ومن الواقع إلى الفكر المجرد ، نمت الدراسات التاريخية : تاريخ عام وتاريخ الفن والفنانين والكتب والكتاب ، تاريخ الفلاسفة والعلماء . لقد ابتدأ العالم يعيش على ماضيه ، ويجد فى ذلك الماضى خيراً من حاضره . ونمت الدراسات العلمية : رياضة وطبيعة وطب وتاريخ طبيعى وجغرافيا ونحو وفقه لغة وموسيقى وكل هذه الدراسات مع ذلك لم تكن أصيلة . كانت جماً لا فلسفة فيه ولا نقد إلا بمقدار . لقد امتاز هذا العصر بثقافة موحدة سمحت حتى لذوى النفوس التافهة بأن يصبحوا

أدباء وشعراء وبذلك امحت الفروق الشخصية ولم يعد للأسلوب الفردى غير وجود محدود

فى هذا الوسط العلمى نشأ أدب الإسكندرية ؛ فكان نصف قائليه من العلمـاء . ولفهم البون الشاسع بين هذا الأدب والأدب الإغريقى القديم لا بد من أن ننظر فى نشأة الفنون الأدبية المختلفة نظرة عاجلة

نشأت فنون الأدب القديمة نشأة شعبية ، فالقصص والغناء وإن كانا قد ظهرا معاً ملازمين فيما يبدو لنشأة الإنسانية ، إلا أن القصص الأدبى قد سبق الغناء ؛ فأعمـال البطولة الماضية أفعل فى خيال الرجل الفطرى من الحاضر والقصص خليق بأن تستجيب له نفوس رجال يعيشون فى نظام ملـكى ، حيث للملك هيبة وجلال يحملان أفراد الشعب على الإعجـاب بالأبطال السابقين . وكانت الشعوب فى جلتها زراعاً وبحارة وعمالاً لا يجدون فى عملهم اليومى غير حرارته التى تشغلهم حيناً ، ثم ينقضى العمل غير مخلف ما يشغل النفس ، أو يهز الخيـال . ولهذا صادفت ملاحم هوميروس ظماً فى النفوس حتى كان القرن الثامن ق . م . وقد انهارت الملـكيات وحلت محلهـا نظم أرسطوقراطية أو ديمقراطية لا يتخللها الاستبداد الفردى إلا من حين إلى حين ، وتقهقرت الحياة الجماعية القبلية وأخذت الشخصية البشرية تظهر وسط المجموع ، وأصبح الحاضر يشغل الناس ويتعلقون به ناظرين فيما يحمل من مسرات وآلام ، فظهر الشعر الغنائى بما يحمل من عنصر شخصى ومن أصداء الحاضر . وسارت الحياة وقد أصبح الإغريقى لا يقنع بالقصص أو الغناء بل يود لو تُصوِّر حياته وحياة آلهته ليراها بعينى رأسه ويشهد أحداثها بما فيها من معان فنشأ الشعر التمثيلى فى القرن الخامس

وكانت نشأة تلك الفنون موزعة بين الشعوب الإغريقية ، فالقصص نشأ فى إيوليا بآسيا الصغرى حتى ليكاد ينحصر الخلاف الجدى عن مولد هوميروس بين جزيرة كيوس ومدينة أزمير ، ومن إيوليا انتشر فى إيونيا لينتهى أخيراً إلى أتيكا بأوروبا حيث دون بأمر پيزيستراتس مستبد آثينا فى القرن السادس قبل الميلاد . وأما الشعر الغنائى فقد ظهر موزعاً حسب أنواعه . فالأغانى الشخصية : أغانى الشراب والغرام ولدت وازدهرت بلزبوس الإيولية . جزيرة « ألسبة » و « سافو » تلك التى قالوا إن رأس

أورفيوس قد أرست بها فأوت إلى أحد خلجانها . وشعر الجوقات ، شعر الجماعات ، شعر النصر والمواكب قد نشأ بين الشعوب الدورية الخشنة المحمولة على الجهاد النازعة إلى الحياة القبلية والنظم الأرسطقراطية : فى طيبة ولد پنداروس وباللهجة الدورية كتب أناشيد النصر التى لدينا . والشعر الهجائى وشعر الوجدان ذهبت بهما القبائل الأيونية ، وأما الشعر التمثيلى ففن آثينى فى جوهره

ولقد كان لنشأة تلك الفنون بين هذه الشعوب ما يبررها ، فالجنس الإيولى جنس مرهف الإحساس فنان المزاج مقبل على الحياة متأثر بأحداثها ، والجنس الدورى كما قلنا جنس خشن مولع بالمعارك والانتصارات والإيونيون قوم أغنياء بمالهم وبحياتهم العقلية ، والسخرية والوجدان خصائص تلازم حساسية العقل ولين الحياة . وأما الآثينيون فأهل نشاط عملى وإقدام على المغامرات ولا شك أن فى المسرح ما يرضى تلك النزعات

هكذا نشأت فنون الأدب ، شعبية إقليمية . ومع ذلك لم تلبث أن أصبحت إغريقية عامة ، فتكونت لغة قصصية مزيج من الإيولى والإيونى والأتيكى ولغة إيولية للأغانى الشخصية ولغة دورية لشعر الجوقات ثم اللغة الأتيكية المسرح . وبلغ من ثبات تلك اللغات الأدبية وتخصصها أن رأينا شعراء آثينا مثلاً يكتبون باللغة الدورية الأجزاء الغنائية من مسرحياتهم

تكونت إذن لغات أدبية مصطنعة ، ولكن ذلك لم ينل من قوة الأدب الذى ظل متصلاً بالحياة حتى جاء عصر الإسكندرية ، وقد اختلطت فى المدن الجديدة الأجناس وانهار استقلال المدن القديمة وجفت الحياة العامة فنضبت ينابيع الأدب الذى لم يعد يتجه إلى الشعوب بل إلى نخبة من المثقفين . لم يعد خلقاً تلقائياً بل صناعة أو تزجية فراغ . لقد حلت فيه المهارة محل العبقرية ، حل العلم محل نبض الحياة ، حل الظرف والكياسة محل وثبات القلب وتأجج القرائح

لقد نشأ أدب الإسكندرية بعيداً عن الشعب ، بعيداً عن الحياة ، فجاء الكثير منه أدباً متكلفاً قليل الحظ من الصدق

أدب الإسكندرية كنبات فى بيوت من زجاج . ومع ذلك لم يذو النبات كله كما سنرى فى المقال الآتى .

محمد مندور